مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين الدكتور
صلاح الدين المنجد

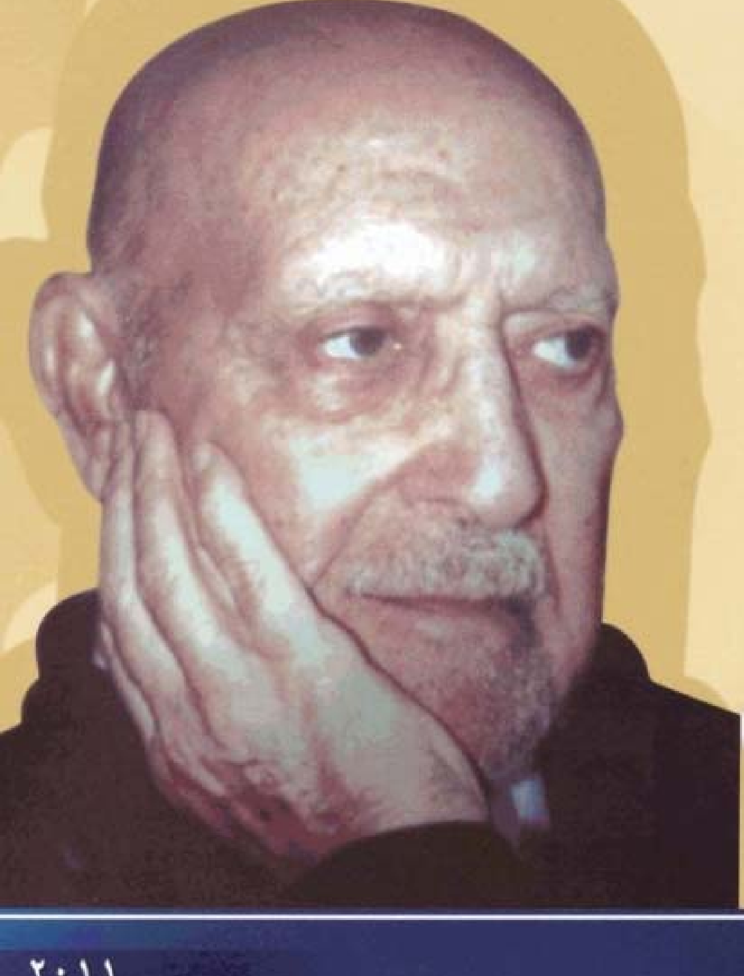

في قاعة محاضرات المجمع

٢/٦/٢٠١٠

٢٠١١

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين
الدكتور صلاح الدين المنجد

بسم الله الرحمن الرحيم

يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ
وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ

صدق الله العظيم

كلمة الدكتور مروان المحاسني
في حفل تأبين الدكتور صلاح الدين المنجد
في قاعة محاضرات المجمع ٢/٦/٢٠١٠م

أيها الحفل الكريم

إن الذاكرة البشرية، التي تتجاوز ما للمخلوقات الأخرى من ذاكرة مسخَّرة لما يسد حاجة معيشتها، هي من نعم الخالق على الإنسان إذ إنها من أهم القدرات التي يتمتع بها.

فهي مُختزَنةٌ في دماغه يستحضر منها ما يناسب الموقف الذي يكون فيه، ويحاول أن يُقصيَ عنها أموراً ترتبط بوقائعَ لا تسوّغ له نفسُه استذكارَها.

وتلك هي كذلك حالُ المجتمعات، نراها تُصرُّ على تذكّر انتصاراتها، وتحديدِ منطلقات ومكونات عظمتها، على حين تُسقط بعيداً عن محور كيانها ما تعتبره مُخلاً بتخيُّلها عن ماضيها، فلا تُخرج النكسات والهزائمَ والاختناقات إلا مُزيَّنةً بحُلَلٍ تعليلية تبرز ما يمكن أن يكون إيجابياً، أو ما يمكن اعتباره دروساً تُعين على التخطيط لمستقبل أفضل.

أما الفئات المهتمة بالفكر، والحريصةُ على إبراز ما مَرّ في تاريخه من أعلام ومُبدعينَ ومُنتجين، فهي تتحيَّن الفرص لتعريف مجتمعاتها بما يُمثّله هؤلاء الأعلام في إنتاج الكتلة المعرفية التي تعتبر خلاصةَ التراث الذي تريد أن يرثَه الأحفاد.

إلا أنه لابد أولاً من توضيح مفهوم الأعلام، نظراً لما دخل إليه من شططٍ وتضخيم وتفخيم وافتراء، بعد أن رأينا أصحابَ الثروات والمناصب، والبريقِ الاجتماعي الزائفَ أعلاماً تتسابق أعمدةُ الصحف إلى إبراز مآثرهم.

أيها السيدات والسادة

نحن اليوم في موقف أردناه تكريماً لذكرى عَلَم حقيقي من أعلام حياتنا الفكرية وثقافتنا، تلك الثقافة التي لا يمكن لنا الإحاطة بحقيقتها إن لم نَعُدْ إلى مكوّناتها، ونَدخُلْ في تفصيل المرتكزات الإنسانية التي عبّرت عنها لغتُنا طيلة قرون عديدة، كانت فيها ثقافتُنا مشعلاً يضيء أركان المعمورة، بما تحمله من قيم تنهض بالهمم، ونزعاتٍ حضاريةٍ ترتقي بالإنسان إلى المستويات العليا، التي تكتمل فيها إنسانيته.

لقد مرّ الدكتور صلاح الدين المنجد رحمه الله شهاباً ساطعاً في أفق الثقافة العربية طيلة القرن العشرين، شهاباً أَخْلفَ مساراً متألقاً من أعمالٍ أصبحت من اللبنات الثابتةِ التي تعتمدها كلُّ دراسة جادّة لتاريخنا الثقافي.

فمن مكتب عنبر ودار المعلمين، إلى أستاذ زائر في جامعة برنستون وجامعة فرانكفورت، نتتبَع خطوات رجل تفتّح ذهنُه على مجالات معرفية مختلفة متفرّقة، ولكنها تجتمع لتتكاملَ في فهم تراثنا وتوثيقِ أصالته، وبيانِ إضاءاته تراثاً عالمياً مازال يحتاج إلى بحوثٍ مستفيضة قبل استنفاد معطياته.

إن انطلاق الدكتور المنجد في رحلة طويلة مثمرة في ميادين العلم والفكر يستند إلى مراحلَ قد تبدو متباينةً حين تُقاس إلى ما نعرفه عن حياته وإنتاجه. فهو قد جمع دراسةَ الحقوق، وصولاً إلى الدكتوراه في القانون الدولي والتاريخ، إلى شغف حقيقي بالفن الإسلامي والخطوط العربية التراثية، ودراية عميقة بآثارِ الفنّ العالمي الموفورة في متحف اللوفر في باريس، وهذا يعني أنه من القلة الذين لم يحصروا أذهانهم في فرع من فروع المعرفة، بل بقُوا يستقون من الفروع الأخرى ما يفتح أبواب المقارنةِ والإحاطةِ بالشَذَرات قبل تَمثُّلها، حتى تنتظمَ في كلٍّ معرفيٍّ منتج.

ولابد من القول أيضاً بأننا هنا أمام مثال أصبح نادراً على أهمية تأثر الشباب بمن يعتبرونهم قدوةً لهم. فقد كان الأستاذ محمد كرد علي مؤسسُ مجمعنا هو المُطلق لعبقرية الدكتور المنجد حين أشار عليه في عام ١٩٤٠ بالاهتمام بما تحويه المكتبة الظاهرية التابعةُ للمجمع من مخطوطات، هي كنوزٌ مكنونة وجواهرُ تنتظر مَن يصقُلها.

لقد أتاحت للدكتور المنجد نشأتُه في بيت دمشقي محافظ «يرفرف عليه القرآن الكريم» كما يقول، أن يدخل إلى صميم اللغة والتراث. فتعلّق بكل ما يخصّ دمشق في التراث العربي، واهتم بدراسة مخطوطات الظاهرية، وقام بفهرستها، وبدأ ينشر منها ما يراه تعريفاً بآثار دمشق، وهذا ما انتهى به إلى إصدار كتابٍ عنوانه «مخطط دمشق القديمة»، وقد أثبت فيه دقائقَ ما يعرفه عن أسوارها، وأبوابها، وأحيائها، ودروبها.

لقد استولى عشقُ دمشق على الدكتور المنجد، فراح يؤلف في معظم خصائص دمشق، يصف حماماتها، ويبحث عن دُور القرآن فيها، ويدرس تاريخ وتطور بيمارستانها، ويستخلص من كتب التاريخ ما يخص دمشق، ذاكراً الآثارَ المخطوطة للمؤرخين الدمشقيين، وتاريخَ وُلاة مدينة دمشق وأمرائها، ويترجم مؤلفاتِ معظم المستشرقين عنها، مُعلّقاً على مؤلفاتهم. وكان أولَ من تصدى إلى تحقيق ونشر أهمّ ما كُتب عن دمشق، وهو «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر، وكان له الفضل في وضع المنهاج العلمي المناسب لتحقيق ذلك المؤلَّف النفيس، وقام بنشر المجلد الأول والقسم الأول من المجلد الثاني عام ١٩٥٤. ومازال مجمعُنا يسعى إلى إتمام نشر المجلدات الثمانين التي يتألف منها الكتاب، وقد تجاوز العمل المجلد الستين.

وكان للدكتور المنجد كتابٌ في قواعد تحقيق النصوص حين تصدّى لدراسة العديد من كتب التراث عن دمشق، ككتب ابن طولون، والبوريني، والحافظ الذهبي، والوهراني، والشيباني، وغيرهم، ساعياً إلى تحقُّق صحة ما رُوي فيها عن دمشق.

لن أستطيع حصرَ وتعداد تلك المجالاتِ الهامة التي تطرق إليها الدكتور المنجد، والممتدة من اللغة إلى الخطوط، إلى الآثار وإلى التاريخ.

فقد وصل اهتمامه بدقائق التاريخ أنه حقّق ونشر عام ١٩٨٠ مخطوطاً كنتُ أعرف وجودَه لعلاقته بتاريخ عائلتي، وفوجئت حين وصل إلى يدي، منشوراً بتحقيق الدكتور المنجد مع مقدمة تاريخية له، وعنوانه: «حلولُ التعب والآلام بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام». وهو مخطوط في ثماني ورقات فقط، عثر عليه الدكتور المنجد في مكتبة جامعة برنستون، وهو بخط مؤلفه الشيخ سليمان المحاسني، يروي فيه وقائعَ ما قام به زعيم المماليك في مصر، وكان شبهَ مستقلٍ عن السلطنة العثمانية، من محاولةٍ للاستيلاء على بلاد الشام، بغرض سلخها عن السلطنة. فأرسل أكبر قواده، وهو محمد أبو الذهب، عام ١٧٧١ على رأس قوة عسكرية تضم أربعين ألف مقاتل، قاصداً دمشق. فواجهته القوات العثمانية في سهل داريا إلا أنه هزمها، وتقدّم نحو دمشق، ودخلها بعد هروب الوالي العثماني، لكن القلعةَ صمدَت ولم تستسلم. عندها استولى على الناس الخوفُ والفزعُ، فأسرعوا إلى كبار العلماء، يسألونهم التوجّهَ إلى أبي الذهب عند القَدَم جنوب دمشق، لردّه عن اقتحام المدينة، وكان الناطقُ باسمهم كاتب المخطوط الشيخ سليمان المحاسني، خطيبُ الجامع الأموي، والمدرّس تحت قُبّة النسر فيه. وقد تمكن العلماء أن يأخذوا من أبي الذهب أماناً لأهل دمشق، إلا أنه عاد فنكث العهد، وبدأ يرمي دمشق بالقنابل، فعاد إليه سليمان وحصل على الأمان مجدداً، وتم انسحاب أبي الذهب وعاد إلى مصر.

إن الاهتمامَ بمثل هذا المخطوط الصغير، والإصرارَ على نشره، إنما يؤكد حرصَ الدكتور المنجد على إبراز كلّ ما يعطي فكرةً دقيقة عن حياة دمشق وثقافة دمشق، فهو من خلال هذه الحادثة التاريخية يسعى إلى توضيح أهمية العلم والعلماء حتى يفوّضَ الناسُ أمرَهم إليهم، في ظروفٍ قاسيةٍ كوصول قوة غازية بدأت ككلّ الغزاة تُمارس النهبَ والقتل.

إن مسار الدكتور المنجد الفكري في تلك المجالات التي يَصبُّ معظمها في حياة دمشق وحضارتها وأخلاقها، ومكانتها، مسارٌ ينطبق عليه ما عُرف في الأدب العالمي بالنزعة الإنسانية، وهي المسارُ الفكري الذي يضع الإنسانَ والقيمَ الإنسانية على مستوىً أعلى من القيم الأخرى المسيطرة على التعامل بين الأفراد في المجتمع، والتي غالباً ما تعتمد النفعيةَ والأثَرَة، وتحصُر الإنسانَ في نطاق فرديته، ومصالحه الضيقة.

فإن رجوعَ الدكتور المنجد إلى النصوص القديمة، وبذلَه ذلك المجهودَ الدؤوبَ للوصول إلى حقائقِ ومرتكزاتِ الحضارة الدمشقية، قد أدخله في تسلسلٍ يجمع فيه بين دُور القرآن وتعاليمها ومنطلقاتها الإيمانية، وبين الخدمات الإنسانية التي يقدّمها البيمارستان، ليربطَ ذلك بالعادات الشعبية التي درسها في كتاب محمود العدوي عن الزيارات بدمشق. وهذا ما انتهى به إلى ما نعتبرُه موقفاً فلسفياً يتمحور حول تيارٍ فكري إنساني، تتضمّنه هذه النصوص القديمة وتنطق به، ليعرض أمامنا نماذجَ حياتيةً، ومساراتٍ فكريةً، ومواقفَ إنسانيةً يمكن أن نقوم بتحليلها ثم اعتمادها في بناء فكرٍ نهضوي، يستقي من ينابيع تراثنا ما يُعيد الإنسانَ إلى لبّ الاهتمامات في حياة المدينة. وبذلك يكون قد أعطى مدينةَ دمشق حقَّها بوتقةً تَصهَر مَن فيها، لتجعل منهم كتلةً بشرية تتفاعل مع الأحداث، وتتجاوز صروفَ الدهر، لتبقى واعيةً لقيمها، ملتزمةً بأصالتها.

أيها السيدات والسادة

هل بإمكاننا بعد هذه النظرة العجلى إلى المجالات التي اهتمّ بها الدكتور المنجد أن نجعله في عداد الأدباء؟

إنه لاشك أديبٌ حسب تعريف ابن قتيبة، بأن الأدبَ هو الأخذُ من كل علم بطرف، وقد نظر الدكتور المنجد في مؤلفات السيوطي، وأدبِ الغرباء، وكتبَ عن أمثال المرأة عند العرب، إلى جانب اهتمامه بالشعر والفنون الأدبية الأخرى.

أم نعتبره مؤرخاً أضاف تصوّراً جديداً لمدينة عريقة عتيقة، وقد دخل في تفصيل مساجدها ومدارسها وعلمائها وأمرائها، حتى جعل منها كلاً تراثياً ثقافياً تتشابك فيه المؤثراتُ البشرية مع العناصر العمرانية، وتتحكّم فيه تقلباتُ الدهور.

أم هو محققٌ غاص في مجال محدّد من النصوص المتعلقة بدمشق، وقد أضاف إلى ذلك أدبَ الرحلات وأخبارَ الظرفاء إلى جانب أخبارِ النساء العاشقات.

إنه كلُّ ذلك، فهو أديبٌ شامل تميّز بنظرة فنيّة إلى الآثار والخطوط، وركّز اهتمامه على مدينته، يجهَدُ في تحقيق كلّ ما يشير إلى مكانتها الحضارية، وما يتيحُ الاطّلاع على دقائق حياتها، مؤكداً كونَها كتلةً عمرانية إنسانية مُتجذّرةً في التاريخ، وقد أقامت صروحاً متميزةً في مجالات العلم والثقافة، ليبقى ذكرُها كما قال سعيد عقل «في عروة الدهر وسام».

أيها الحفل الكريم

لئن حالت ظروفٌ مختلفة دون انضمام قامةٍ كبيرة كالدكتور صلاح الدين المنجد رحمه الله إلى مجمعنا، ومنها طول غيابه عن دمشق، فإن حرصَ المجمع على إقامة هذا الحفل التكريمي لذكراه، إنما هو محاولةٌ متواضعة لإبراز المكانة التي يتميز بها الدكتور المنجد في عالم الفكر والثقافة، والحرص على التراث. جعله الله مثالاً لشبابنا لعلهم يساهمون في نشر ما يحتويه تراثُنا من نفائسَ تحكي قصةَ ثقافتنا الأثيلة.

الدكتور صلاح الدين المنجد
كما عرفتُه

الدكتور مازن المبارك

فقيدنا اليوم الدكتور صلاح الدين المنجد فارسٌ من فرسان العلم والثقافة، عاش تسعين عاماً يتنقل بين المدارس والمعاهد والجامعات، وينال الشهادات والإجازات، ويطوف العالم شرقه وغربه أستاذاً زائراً وعالماً محاضراً يشارك في الندوات والمؤتمرات، ويتتبع ما سُرق أو ضاع من تراث الأمة من نفائس المخطوطات.

لقد حمل فقيدنا الراحل تسعين عاماً على كتفيه فيما بين سنتي ١٩٢٠و ٢٠١٠م وجاب أقطار الأرض وأركان الدنيا رافعاً لواء الحضارة العربية الإسلامية بعلومها المختلفة وآثارها الزاهرة معرِّفاً بها ناشراً أريجها، ما كلّ وما ملّ، ما هدأ وما استراح .. حتى أراد القدر له أن يترجل، فترجل أثابه الله، ورحل رحمه الله. ونحن اليوم في ذكرى رحيله يعزّي بعضنا بعضاً فيه، فهو ليس فقيد أسرته وحدها ولكنه فقيدنا جميعاً، وفقيد العلم، وفقيد الأمة، وفقيد دمشق.

أيها السادة .

ما أعتقد أن العادة جرت في احتفالات التأبين بتقديم كلمة باسم أصدقاء الفقيد إلاّ لأن لحديث الصديق عن صديقه ميْزة ليست في غيره! إن لحديث الصديق نكهةً خاصة تعطّرها الصداقة، وطعماً خاصاً يتذوقه القلب قبل الأذن، ولهجة أقرب إلى الصدق والمكاشفة والغوص في أعماق النفوس وحقائق الحياة منها إلى المجاملات وتعداد الشهادات والمؤلفات.

اسمحوا لي - أيها السادة - أن أقرأ عليكم صفحة من صفحات القلب تخصُّ فقيدنا الراحل، وأن أتجاوز قراءة سيرته الذاتية والعلمية في هذه المناسبة، فأنا لن أقول لكم متى ولد الدكتور المنجد ومتى مات؟ وماذا حصَّل من العلوم وحاز من الشهادات؟ وماذا عمل أو تبوأ من المناصب؟ وكم ألقى من المحاضرات وحضر من المؤتمرات؟ وماذا ترك من الآثار تحقيقاً وتأليفاً؟ إن ذلك كلَّه - على أهميته وطوله وكثرته - مبذول لمن يريده في الشابكة (الإنترنت) وفي الصحف التي نشرت سيرة فقيدنا الراحل. أما أنا ففي نفسي صورة يضمَّها إطار يتعاقب على الرسم بداخله ثلاث شخصيات، كلما زدته نظراً زادني ثقة أنه إطار واحد أو صورة واحدة لثلاثة أعلام! ولقد كان آخر هؤلاء الأعلام الدكتور صلاح الدين المنجد.

إن من حق الدكتور المنجد عليَّ أن أنشر عنه ما لم يُنشر، وأن أذكر عنه ما لم يُذكر، وأن أتحدث عنه بغير ما شاع وانتشر، لأعطي الصورة التي عرفتها عنه وأذكر ما ترك في نفسي من أثر. سأقف عند نقطتين اثنتين: الأولى صفات الفقيد كما عرفته، والثانية منزلته بين روَّاد الثقافة في بلاد الشام.

إن الدكتور المنجد - أيها السادة - صنو قاسيون في نفسي، التصاقاً بدمشق، وصلابة في الخُلُق، وكلاهما جبل دمشقي، لكن قاسيون جبل من حجر، والدكتور المنجد جبل من العلم، جبل من الثقافة .. ورأيت له مواقف كان فيها أصلب من الحجر.

وحسب هذا التشبيه أن يعرِّف من لا يعرف فقيدنا الراحل أيَّ خسارة حلَّت بدمشق وبالعلم وبالثقافة بفقد عالم دمشق الراحل وابنها البار.

عرفته - رحمه الله - في فجر شبابه فتىً يلفت النظر بنضارته و أناقته وسرعة خطواته وخفة حركته، كان مثاله نادراً في أحياء دمشق القديمة، ولم أكن أعرف عنه سوى أنه ابن الشيخ المنجد - ولأبيه شهرة واسعة واسم كبير - وكنت أقدّر أنه يعرف نسبتي إلى أسرتي ولا يعرف اسمي، كنت أراه ويراني كل يوم، كانت نظراتنا سرعان ما تتلاقى وسرعان ما تفترق دون تحيّة أو سلام حتى التقينا ذات يوم وجهاً لوجه في باحة مجمع اللغة العربية بباب البريد فابتسم كل منّا للآخر وامتدّت الأيدي وتصافحت الأكفّ، سألني عن اسمي ودراستي، وعن والدي وأخي - وكان على معرفة بهما - ، ثم تكررت هذه اللقاءات التقليدية الباردة غير مرّة، إلى أن غبت عن المجمع وانتظم دوامي في الجامعة فلم أعد أراه. وسافرت إلى القاهرة في أواخر عام ١٩٥٤، ولم أكد أستقر حتى سمعت أن الدكتور المنجد مدير معهد المخطوطات في الجامعة العربية فبادرت إلى زيارته في مكتبه واستقبلني ببسمته اللطيفة وكلماته الحلوة واستبقاني عنده حتى اطمأن عن أحوالي الدراسية والاجتماعية وقال لي أريد أن أعرف من هم أساتذتك ومن الذين تتصل بهم وما الموضوعات التي تدرسها..؟ وسأستمع منك إلى كل ذلك حين نلتقي غداً على العشاء. وكان له ما أراد، رحمه الله ما كان ألطفه وأوفاه، وما أرق شعوره وأحكم أسلوبه وتصرفه، لقد أشعرني أنه أخ كبير يرعاني ويمدني بعونه ورأيه، فملأ نفسي ثقة، وطلب إليّ أن أزوره في كل أسبوع..ووعدني أن يكلّفني كتابة بعض الموضوعات والتعريف ببعض المؤلّفات..ثم فعل ذلك فكان معي كما كان الأستاذ كرد علي معه المرشدَ والمشجّع.

إنها كلمات قليلة، وحوادث صغيرة، ولكني عرفت فيما بعد أن وراءها نفساً كبيرة وشعوراً إنسانياً غامراً، وحباً لدمشق وأهلها، ووقوفاً إلى جانب الشباب وأخذاً بأيديهم ليشقّوا طريقهم في الحياة. وعرفت أن الدكتور المنجد مثال

رائع في ذكائه وطموحه وتسخيره مواهبه لتحقيق الهدف الذي وضعه لنفس
وبنى حياته وفراها وقدَّرها للوصول إليه..وكأني به في نصائحه وتوجيهات
لي يريد لجيل الشباب من بعده أن يقلّدوه وأن يسيروا في دربه وعلى خطا
وهيهات هيهات، إنه رحمه الله أدرك ضيق أفق الاختصاص في علم واحد فنش
نفسه على التبحُّر في أكثرَ من علم، وعلى الجمع بين الثقافات، وكان له م
أراد، وكان مثالاً نادر المثال للمثقَّف في عصره. إنه واحد من علماء الأم
الموسوعيين الذين قرأنا تراجمهم أو سمعنا عنهم ممن لا ينتمون إلى عل
واحد أو اثنين، وممن اشتركت في تكوين ثقافتهم علوم كثيرة حتى قيل إن
موسوعة أو جمهرة أو مجمع علمي...وإن كان فقيدنا المنجد كان يؤثر كلم
"مشارِك" يصف بها من كان الشمول والموسوعية صفة ثقافته.

إنها قصة طموح ونجاح بدأت يوم بدأ يكتب وهو ابن التاسعة عشر
من عمره! وهي مسيرة ساعده عليها رجال كانوا بناة للوطن ورعاة لأبنائ
يشجعون الطامحين ويرشدونهم ويسدِّدون خطاهم. ونجح ابن التاسع
عشرة واجتاز الامتحان وسار على درب العلماء الكبار، ولم يلبث حتى أصب
واحداً من أعلامهم ينتصب بينهم بقامته الثقافية الشامخة..ولم يُنس
مركزه وأعباؤه، وانهماكه في العمل العلمي أن يمهِّد الطريق لمن سيأتي بعد
وأن يأخذ بأيدي الناشئين من الشبان، سواء حين كان في معهد المخطوطا
بالقاهرة أو في دار الكتاب الجديد ببيروت.

أعطاني ذات يوم كتاباً لأكتب عنه كلمة في باب التعريف والنقد في مجل
المعهد، ففعلت وجئته بالمقال، ومرَّت الشهور وصدر من المجلة عددٌ وثان ول
يُنشر المقال، وجئته أسأل لمَ لمْ ينشر مقالي؟ وقد أنساني الغرور ونزَق الشبا
كل ما بيننا من فروق! فقال لي: أتشرب قهوة أم زهورات؟ ثم عقَّب بسرعة

الزهورات الآن أحسن لأنها تهدّئ الأعصاب! فخجلت وأدركت أن لهجة سؤالي لم تكن مناسبة فاعتذرت. قال: أعجبني مقالك، ولكني لم أنشره ولن أنشره لأن فيه شدَّةً وقسوة، وأنا أخاف عليك لأن صاحب الكتاب مؤذٍ وأنت في مصر طالب ضعيف. ثم قال: أنا قبلك فعلت مثلك، كنت في دمشق وأنا شاب أناطح الفحول دون تفكير في العواقب! وأنت هنا طالب يحسن أن تنصرف إلى دراستك دون افتعال المشاكل مع الناس. وكان رأيه سديداً حكيماً. وقصَّ عليَّ رحمه الله أنه بدأ حياته الثقافية بمقالة نقد فيها الأستاذ كرد علي وهو رئيس المجمع العلمي العربي، قال: وكنت أصغر منك ، ولكن الكرد علي كان إنساناً عاقلاً فاستدعاني ونصحني وشجعني .. ثم قال: وأين في الناس اليوم مثل الكرد علي؟

وعلّق على ذلك قائلاً: إن الأستاذ كرد علي كان صاحب فضل لا أنساه، فهو الذي أرشدني إلى طريق المكتبات والمخطوطات والتحقيق.. ووجّهني نحو تراثنا وحضارتنا وتاريخنا ونحو دمشق. إنه بشّرني بأنني سأكون من علماء دمشق.

رحم الله الدكتور المنجد فلقد كان الابن الروحي للأستاذ كرد علي كما أطلق عليه الكرد علي نفسه وكما أشار هو نفسه إلى ذلك بقوله: " إن حادثة اتصالي بالكرد علي كانت حدثاً هاماً في حياتي الثقافية. " وكان الأستاذ كرد علي الابن الروحي للشيخ طاهر الجزائري، فقد كان يقول عنه: شيخي وأستاذي صدر الحكماء الذي أشرب روحي حبَّ العرب .. ولقد كانت وصية الشيخ طاهر للكرد علي هي وصية الكرد علي للدكتور المنجد. ألم أقل إنه كان يتعاقب أمامي على الإطار ثلاث صور إحداها للشيخ طاهر و الثانية للكرد علي والثالثة للمنجد. إنها مدرسة واحدة تمثل بخصائصها علماء دمشق، وإني إذ أذكر خصائص هذه المدرسة فإنما أذكر خصائص مدرسة النهضة

العربية الإسلامية التي احتضنتها دمشق ورفعت لواءها بصدق واستحقاق وجدارة، والتي تمثل بخصائصها خصائص علمائها وأقطابها الذين كان آخر من عرفنا منهم الصديق الراحل الدكتور صلاح المنجد الذي عُرف:

١-بعشق العلم وتسخير النفس والجهد والوقت لكسبه ونشره وإحياء آثاره.

٢-بالعناية بكل ما يتصل بالحضارة العربية الإسلامية وعلومها وخصائصها، وبعث مآثرها وإحياء آثارها وذكرى رجالها.

٣-بالاهتمام بدمشق والارتباط بها فكراً وقلباً وقلماً.

٤-بترفع علمائها عن سفاسف الأمور وصغائر الحياة في سلوكهم الخاص، وامتلاء نفوسهم عزَّةً وكِبْراً؛ لم يصانعوا ولم يداهنوا. وإنما أحبوا للعلم وفي العلم، وكرهوا للعلم وفي العلم، وخاصموا للعلم وفي العلم، لم يبالوا برضى مَن رَضِي ولا بسَخَط مَن سَخِط. ما عُرف عن واحد منهم على تواضعهم أنه خضع لضيم أو رضي بظلم.

٥-وكان من خصائص هذه المدرسة أو خصائص علمائها الانفتاح على الثقافات المختلفة في الداخل والخارج، ولم يكن العمل في إحياء التراث حائلاً دون الاهتمام باللغات والثقافات غير العربية.. بل كانت لكل منهم صلات واسعة جداً بالثقافات الأجنبية ولغاتها وعلمائها ومراكز العلم في البلاد الأجنبية من جامعات ومجامع علمية ومراكز استشراق.

٦-وكان النشاط والحركة السريعة الدائبة أبرز صفات علمائها.

رحم الله الدكتور المنجد، فلقد رأيته يحب العلم، يخلص له ويعمل له، يحب فيه ويكره فيه، يخاصم فيه ويصادق فيه.رأيته حكيماً يستقبل وجوه الأعمال بسديد الآراء تجنُّباً لما يُخشى من العواقب.

لقد كان ذا نفَس تستمدُّ من البيت الذي رُبّي فيه والحي الذي عاش فيه، ومن جوّ المدينة التي أحبَّها فكان زكيَّ الأصل، طيّب النفس، حلو الطبع، صريحاً، جريئاً، وفيّاً، إنسانيَّ الشعور، لقد رأيته عن قرب ورأيت مواقفه النبيلة في مواساة الناس وكيف يبذل من مشاعره ومن وقته ومن ماله حين يحتاج الموقف إلى ذلك. ولقد كان رحمه الله مثالاً للُطف الحازم أو للحزم اللطيف، وكان مثقفاً دمثاً، وكبيراً متواضعاً، وحكيماً يعطي لكل موقف حقَّه.

لقد كان شبابه يحدّث عن مستقبله! وكان ذكاؤه وحركته ونشاطه الاجتماعي ونظرته الثابتة..كان كل ذلك يحكي قصة طموح وقصة حياة ناجحة.

أي نشاط هذا الذي جمع في الدراسة بين مكتب عنبر والكلية العلمية، وبين دار المعلمين وكلية الحقوق؟ وجمع في العمل بين وزارة المعارف ومديرية الآثار؟ وجمع في الموضوعات بين الأدب والحقوق والتاريخ والخطّ والمكتبات والمخطوطات والقانون الدولي والفنون الإسلامية؟

لقد بقيتُ إلى جانبه في القاهرة سبع سنوات كان فيها هو معهد المخطوطات؛ يُذكر اسمه على أنه أعاد تأسيسه وعدّل نظامه ورفع شأنه وأخرج مجلّته، وجعله قِبلة الباحثين وطلاب المعرفة، في الوقت الذي كان مركز إشعاع علمي يستقبل كبار العلماء من الشرق والغرب..وفي الوقت الذي كان هو مديرَه يديره ويرعاه ويسهر على كل كبيرة وصغيرة فيه، وكان كغيره يكتب ويؤلف ويسافر ويحاضر ويحقق المخطوطات! سألته مرةً من أين يأتي بالوقت؟ فتبسَّم وقال: ماذا تصنع أنت بعد الغداء؟ قلت: أُقيّل. قال: كم ساعة؟ قلت: ليس أكثر من ساعة أو اثنتين. قال: أنا لا أخلع ملابسي بعد الغداء بل أستريح على الكرسي نصف ساعة ثم أقوم لأعاود العمل. وتابع: وأنا أتنازل

عن كثير مما يرغب فيه غيري من راحة أو زيارات، وقد جعلتُ كتبي حولي لئلا أضيع الوقت في البحث عنها في المكتبات.

ولست أنسى يوم دخلت عليه في مكتبه في دار الكتاب الجديد ببيروت، وكنت أزوره كلما ذهبت إلى محاضراتي في الجامعة اللبنانية، فأهدى إليَّ كتاباً وقال لي: هذا كتابي المئة. وكان مكتبه دار نشر، كما كان مركز استشارات علمية للباحثين وطلاب الدراسات العليا، يستقبلهم ويرشدهم ويجيب عن أسئلتهم، وهو في مكتبه لا يَحُول عمل عنده دون عمل من تحقيق أو تأليف أو استشارة أو كتابة مقال.

عجباً لتلك الهمَّة، ورحمة الله على تلك الروح.

حسبك أيها الصديق الراحل أن لك في كل وادٍ من أودية العلم أثراً، وأن لك في كل فنّ من فنون العلم خبراً، وحسبك أنك أول من وضع مخططاً لدمشق القديمة، وألّفت عن أعلامها من القضاة والأمراء المؤرخين، وحسبك أنك بدأت بتحقيق تاريخ دمشق لابن عساكر فسار المجمع على هدى خطاك، وأنك وضعت قواعد تحقيق المخطوطات، وأنك رفعت لواء الحضارة العربية الإسلامية بما كتبت عن الإمام الشيباني في قوانين الحقوق الدولية..

وأما أنت يا دمشق، يا مدينة الشهداء والعلماء، فلكِ الله، كم يألم لك القلب حين يرى أبناءك وفلذات كبدك يرحلون واحداً بعد الآخر، في سكينة ينسحبون، وفي هدوء ينتهون، تعلو فوق أخبارهم بهارج الحياة..

لك الله يا أخت قاسيون، ما أعظم صبرك، وما أحلى وقارك، أجفَّت دموعك في بردى لِتغيُّر جوِّك؟ أم لقطع شجرك؟ أم لجفاف أنهارك؟ أم لرحيل أبنائك وأحبابك؟

لك الله يا دمشق، ما أتقاك وما أنقاك وما أصفاك، يا أخت الأموي، ويا رافعةَ بكبرياء النَّسر قبَّة النَّسر في سمائك، ويا ضارعةَ إلى الله بمآذنك أن يحفظك ويصون أبناءك ويرحم رجالك وعلماءك.

يا دمشق، يا رفيقة الدهر، ويا أم التاريخ، اسألي الله أن يرحم من رحل من رجالك الأحرار وأبنائك الأبرار، أولئك الذين مَضَوا يحفُّ بهم جلال الموت، وتمضي بهم نعوشهم برهبة ووقار..ويذكرهم أمثالنا من أحياء اليوم، وسنبقى نذكرهم إلى أن تمضي بنا نعوشنا إلى حيث مضوا، ذاكرين كلُّنا يا دمشق أنك الأم التي أرضعتنا العزة والكبرياء، وعطَّرتنا بالفل والياسمين، وأننا حيثما نُدفَن، في أرضك أو في أي أرض أخرى من بلاد العروبة والإسلام فلن تكون أجسادنا للأرض إلا عطراً وطُهراً، ولن يكون اسمنا فوقها إلا أريجاً وتاريخاً وذكراً وذكرى.

أيها السادة. إن خير الناس من يدعوه البِرُّ إلى الوفاء، وإن شرَّ الناس من يدعوه تقصيره إلى العقوق. إن خير الأجيال جيل يحيي سيرة علمائه وينشر مآثر رجاله، وإن شرَّ الناس من شغله حاله وألهاه عُجبه عن تمجيد العلم وأهله. فلنتخذْ من أعلام الرجال وعلمائهم مشاعل نور ومصابيح هدى، نقتدي بهم ونسير على خطاهم.

أيها الصديق الفقيد، أنت أعلم الناس أن عمر المرء بذكره لا بطول مدَّته، وأن ذكرك باق فينا حيٌّ بيننا ما بقينا وما بقي من علمك كتابٌ يُنشر أو سطرٌ يُقرأ. أسأل الله الرحمن الرحيم أن يجعلك حيث أنت راضياً مرضياً. وأسأله أن يقيِّض لدمشق قلماً يؤرِّخ لمدرسة النهضة التي تمثِّل ثقافة دمشق بحقّ وصدق، والتي أرسى قواعدها الجزائري والكرد علي والمنجد، والتي تضم

القاسمي والبيطار والمبارك ودهمان والزركلي وغيرهم. وأسأله سبحانه أن يلهم آل الفقيد الصبر على فقده، وأن يُخرِجوا لنا طبعةً لآثاره الكاملة.

اللهم ارحم فقيدنا الذي اجتمعنا على ذكره كِفاء ما قدَّم لأمَّته، وما بذل للعلم من نفسه وعمره، وعوِّضه خيراً مما ترك. ولأسرته أصدق العزاء، ولمجمع اللغة العربية الشكر والتقدير.

تحية إلى ذكرى العالم الجليل
صلاح الدين المنجّد

الدكتور عفيف بهنسي

أيها السيدات والسادة

تربطني بالعالم المحقق صلاح الدين المنجّد رابطة المودة والتقدير، ورابطة وحدة الاهتمام بالكتابة عن دمشق، تاريخها وحضارتها، وبالبحث في الخط العربي بوصفه إبداعاً عربياً إسلامياً متميزاً عن باقي الخطوط العالمية.

ولقد جمعتنا بعض الندوات، كان أبرزها في اسطنبول حيث اتفقنا على الاهتمام بالكتابة عن الفن الإسلامي، مما يتجاوز الانحرافات التي تورط بها المؤلفون المستشرقون. وكنا نتبادل الرأي في آخر المكتشفات الأثرية التي غيرت معالم العهد القديم، وقدمت شواهد ووثائق لكتابة التاريخ القديم بأسناد علمية.

ولد صلاح الدين المنجّد في دمشق عام ١٩٢٠ لأسرة دمشقية في بيت عربي في حي القيمرية، ودرس في دمشق حتى أنهى دراسة الحقوق ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة باريس.

تجمّع أهم ما عُرف عن حياة فقيدنا وآثاره في حفلة تكريمية أقيمت في جدّة قبيل وفاته، وكان عليه أن يبدأ حديثه عن نفسه بالتذكير بأهمية السيرة الذاتية التي كتب عنها تحت عنوان: (التراجم الذاتية في التراث العربي)، ورأى أن يترجم ذاته بنفسه كاشفاً عن أسراره وما مرَّ به من نعيم وعطاء وشقاء.

تحدث عن والده الشيخ العالم عبد الله وأحالنا على ترجمته الكاملة في ذيل كتابه المحقَّق (دُور القرآن بدمشق) ويؤكد تأثير والده ومكتبته في تربيته وفي ثقافته.

منذ أن كان طالباً جامعياً توطدت علاقته بالعلاَّمة محمد كرد علي الذي اكتشف في دراسته الأولى التي نشرها في مجلة الرسالة في القاهرة نبوغاً وتميزاً، ودعاه إلى تجنب الكتابات السريعة، وعندما سأله نُصْحَه قال له العلامة محمد كرد علي: "عليك بالمكتبة الظاهرية وفيها سبعة آلاف مخطوط، اقرأها وستصبح عالم دمشق". ولم يتردد في تنفيذ نصيحة مرشده فالتزم المكتبة الظاهرية مُبحِراً مع مخطوطاتها.

وعندما عُيِّن في مديرية الآثار تجسد اهتمامه بالكتابة عن دمشق، فأصدر مجموعة من الكتب عن هذه المدينة، منها مخطط مدينة دمشق، وحقق كتاب (مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس) للنعيمي. وكان ينشر بعض دراساته في مجلة المجمع وفي مجلة (الرسالة) بالقاهرة.

وامتثل لنصيحة أستاذه محمد كرد علي بالعمل على تحقيق بعض أجزاء من كتاب (تاريخ دمشق) لابن عساكر.

عُرف الأستاذ الراحل بأبي المخطوطات، وفي العام الفائت ٢٠٠٩ قُدِّم في ندوة مجمع اللغة العربية ودار الكتب في القاهرة على أنه من "شوامخ المحقِّقين" وأنه العالم والأستاذ والمؤرخ والمبدع، وابن دمشق البار بالكتابة عن تاريخها وأدبها والمباشرة بتحقيق أهم مرجع لها.

يعترف المحققون والعاملون في التراث العربي المخطوط أن طريقة صلاح الدين المنجِد هي منهج مدرسي تجلى في تحقيق المجلدات الأولى من (تاريخ دمشق) لابن عساكر، والتي تتضمن أسطورة البناء وأحاديث الفضائل وخطط المدينة، وكان عمله الذي استمر خمس سنوات مرجعاً للعاملين في تحقيق التراث، معتمدين على القواعد التي وضعها المنجِد وأقرها مؤتمر المجامع اللغوية في عام ١٩٥٦ في دمشق والتي صدرت تحت عنوان: (كتاب قواعد فهرسة المخطوطات).

بعد عودته من باريس حاملاً شهادة الدكتوراه تسلّم منصب مدير معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، وكانت السنوات التي قضاها في المعهد من أخصب السنوات في حياته عملاً وانتاجاً، وكان همه أن يجمع في صور كل ما يسعه الوصول إليه من مخطوطات عربية موزّعة في مكتبات العالم التي وطد التعاون والتواصل بها حتى سمّي "سندباد المخطوطات"، وأصدر فهارس تلك المخطوطات في المجلة العلمية التي أصدرها للمعهد، وفي موقعه العلمي هذا أتيح له أن يكون أستاذاً زائراً في جامعات عالمية، وأن يزور مكتبات المخطوطات في المشرق والمغرب، حتى قال رحمه الله: "رأيت بعيني من المخطوطات ما لم يره غيري، وصوّرت الكثير منها".

وفي معهد المخطوطات أشرف الأستاذ الراحل على تدريب عدد من الشباب على تحقيق المخطوطات والاطلاع على المكتبات العالمية. واستمر في إدارة المعهد ست سنوات حتى ابتدأت إقامته في بيروت، حيث أقبل على متابعة ترتيب الفهارس، وكتب معجماً للخطّاطين والنسّاخين، ونشر كتاباً عن المؤرخين، وكتاباً عن دمشق لدى الرحالة والجغرافيين، وكتاباً عن إنجازات الاستشراق الألماني.

عند إقامته في بيروت وحتى بداية الحرب الأهلية فيها كان فقيدنا يتحف قراء جريدة (الحياة) بمقال يومي تحت عنوان: (زاويتي). وكانت علاقته بصاحب الجريدة كامل مروة علاقة مصاهرة وصداقة ووحدة تفكير.

ولم يترك بيروت إلى السعودية إلا بعد أن التهمت النيران بيته ومكتبته التي كانت تحوي أكثر من ثلاثين ألف كتاب، فكانت مأساته قاسية يبتعد عن تذكرها، ومن أهم المخطوطات التي التهبت أو نهبت كان مخطوط ابن قيم الجوزية (كتاب زاد المعاد).

لقد عاش صلاح الدين المنجّد عمره الطويل في بحث واجتهاد، وعندما ابتدأ حياته مستقراً استمر في تنظيم أسرته في بيئة علمية متطورة، كانت زوجته السيدة دنيا شقيقة كامل مروة صاحب جريدة (الحياة) امرأة فاضلة درست الصحافة في جامعة ميتشيغن وأصبحت أستاذة في الجامعة اللبنانية ومسؤولة عن جريدة (الحياة) باللغة الإنكليزية Daily Star، وقد أنجبا ولدين وابنة واحدة.

الابن البكر زاهر خريج جامعة هارفرد نراه معنا اليوم مشاركاً في تكريم ذكرى والده. وتخرجت ابنته منى من جامعة نيويورك في علم الاجتماع، وحمل ابنه الثاني كامل شهادة الهندسة من جامعة بيروت الأميركية. وكان الوالد رائدهم في متابعة الدراسة منذ أن حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة باريس. وكانت غزارة إنتاجه وشهرته موضع فخرهم واعتزازهم. لقد ترك لهم إرثاً من المؤلفات لا يتبدد مهما طال الزمن، ترك لهم ذخراً ضخماً من المؤلفات ما زالت مراجعَ معتمدةً عند الباحثين والمؤرخين والمستشرقين. وقد اعتمد في نشر المتأخر منها على دار النشر التي أسسها لمؤلفاته تحت اسم: (دار الكتاب الجديد).

بلغ عدد آثاره مئة وخمسين كتاباً هي نصوص محقَّقة ومؤلفات في التاريخ والأدب واللغة والخط العربي والآثار القديمة والمعاجم، وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى لغات عديدة. وقد عرَّف بها بقوله قبيل وفاته في ٢١ كانون الثاني ٢٠١٠: "مؤلفاتي هي انعكاس لثقافتي، نشأت نفسي كي أكون عالماً مشاركاً في جميع نواحي الثقافة العربية الإسلامية".

ما زلت أذكر جيداً قصة طريفة عن اكتشافه لمخطوط (كتاب الرسول إلى هرقل قيصر الروم)، والتي سردها لي وكنت قد اطلعت بصحبته على هذه الرسالة المكتوبة على الرق.

كان هنري فرعون سياسياً معروفاً وهاوياً لجمع التحف والآثار، جعل من بيته متحفاً. ولقد ورث عن والده صندوقاً حديدياً ضاع مفتاحه زمناً، حتى اندفع الابن فضولياً لتكليف اختصاصي بفتحه، كان يحوي مجموعة من الأوراق التي لم يعد لها قيمة، ولكن صفحة من الرق مهترئة مهملة أثارت فضوله فأرسلها إلى صلاح الدين المنجِّد كي يتحقق من شأنها، قال صلاح الدين بعد دراسة موثقة: "تأكد لي أن هذه إحدى رسائل الرسول الهامة وأنها موجَّهة إلى قيصر الروم هرقل، لم أستطع النوم، وهاتفت صاحبها بعد منتصف الليل، وطلبت إليه أن يأخذ عني همَّ هذه الرسالة التي لا تقدَّر بثمن".

لم يكن صاحبها مدركاً أهميتها إلا بعد أن أعلن المنجِّد في جريدة (الحياة) عن هذا الاكتشاف الذي يسَّرَ لصاحبه كسباً كبيراً، وحقق للمنجِّد الربح الثقافي المعنوي بنشر دراسته وتحقيقه عن أصالة الرسالة وصحتها.

رحم الله صلاح الدين المنجِّد فلقد كان نبيلاً كريماً مخلصاً لرسالته الثقافية، وأصبح علماً يشار إلى فضله في مجال الكشف عن روائع التراث، وفي حقل الكتابة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية. كان عالماً بعباءة مجموعة من العلماء.

كلمة الدكتور زاهر صلاح الدين المنجد

سعادة رئيس مجمع اللغة العربية
حضرات أعضاء المجمع الأفاضل
أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أبدأ بشكركم جميعاً على إقامتكم هذا الحفل الجامع لذكرى رجل وقف حياته على البحث والعلم فتألق، وغاص في بحار الأدب والتاريخ فحلّق. وأخص بتقديري السيد رئيس المجمع الأستاذ الدكتور مروان المحاسني وزملاءه الكرام، الذين بادروا مشكورين إلى إحياء هذه الذكرى، مؤكدين بذلك تثمينهم للعلم ووفاءهم لأصحابه.

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن المجمع الموقَّر كان الحاضنة الأولى التي انطلق منها الفيض البحثي لوالدي رحمه الله،ذلك الفيض الذي شجعه ورعاه الأستاذ الكبير محمد كرد علي رحمه الله. ولم يمرَّ يوم ذُكر فيه المجمع أمام والدي إلا ترحَّم فيه على أستاذه الكبير، وأكد فيه حبه للمؤسسة واحترامه لها، وأبدى تقديره لدورها الثمين ماضياً وحاضراً، وشكرانه لها.

واليوم وقد اجتمعنا لذكر مناقب رجل تواضع لله فرفعَه، لن تتضمن كلمتي إلا ذكر ومضاتٍ من ذكرياتٍ حية في خاطري، تساعد على إضفاء بعض الضوء على شخصية والدي الدكتور صلاح الدين المنجد وفكره.

وأول ما يجول في خاطري هو ذكرى ذلك الأب العطوف الحنون الذي كان، مع انشغاله الدائم، يجود على أولاده بالاهتمام والمحبة، ويغرس في نفوسهم منذ الصغر مكارم الأخلاق وحسن المعاملة، ويسدد خطاهم نحو حب

العلم والقراءة، ويوسّع آفاقهم بالحوار والمحادثة. وكان يحثنا على الغوص بين كتبه ويشجعنا على السؤال والاستفسار عن اسم كتاب لم نفهمه أو مؤلَّف لم نألفه. وكنت في طفولتي مولعاً بكتب الفن الإسلامي المصورة التي زخرت بها مكتبته، ومنها لا شك نما لدي التقدير لهذا الفن وروائعه. وكم تعلّمنا جمع البطاقات البريدية التي كان يرسلها لنا من مختلف البلدان التي جال فيها بحثاً عن المخطوطات العربية، فزادت معارفنا الجغرافية منذ الصغر، وحثّنا على جمع الطوابع الملصقة على الرسائل العديدة التي كانت ترده من أصدقائه من العلماء والمستشرقين، وبفضلها تعلمنا مبادئ التاريخ المعاصر وعرفنا أعلامه. وقد يكون هذا الحث المستمر لنا على الاطلاع وطلب العلم على أنواعه، أقوى الذكريات في نفسي إلى جانب دعائه الدائم لنا: "الله يوفقكم ويرضى عنكم يا أولادي".

أما الذكرى الثانية فهي ذكرى الابن البار الذي ما فتئ طَوال حياته يترحم على والديه، أي جدي الشيخ عبد الله المنجد وجدتي السيدة لطفية يغمور، مردّداً لنا ومنبّهاً: يا أولادي لا تنسَوا الحديث الشريف: "رضا الله في رضا الوالدين". واقترنت محبة والده تلك بالافتخار والاعتزاز بكونه شيخ القُرّاء والمقرئين في دمشق، فقد جمع القراءات الأربع عشرة. ولقد أظهرت ذلك بوضوح تلك اللوحة الخطية المعلقة في صدر المجلس في بيتنا، والتي رُسمت فيها بخط ثلث جميل الآية الكريمة: (إنّي عَبْدُ الله آتانيَ الكتَابَ)، وكتب الخطّاط تحتها: "كُتبت برسم الشيخ عبد الله المنجد شيخ القراء في دمشق". ولقد برَّ والده خير برٍّ عند تحقيقه لاحقاً مخطوط (دُور القرآن في دمشق) للنعيمي، فأورد في ذيله ترجمة كاملة لوالده ولشيوخه وتلاميذه.

أما الذكرى الثالثة فهي صورة العمل الدؤوب والجهاد الذي لا يكلّ، فلا أذكر والدي إلا وهو منكبٌ فوق مكتبه كاتباً أو قارئاً يسهر الليالي وفي يده سيجارته، وحوله كتبه التي غطت جدران الغرفة بل البيت كلّه. وكنا إذا دخلنا عليه وهو في خضم التركيز نظر إلينا من فوق نظارته وابتسم ثم أشار إلينا بيده بالانصراف. وكانت خلفه لوحة خطية جميلة لبيت شعر للمتنبي بخط الخطاط المصري المشهور سيد إبراهيم:

أعزُّ مكانٍ في الدنى سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الأنام كتابُ

وهذا منهج اتبعه في حياته الاجتماعية، مع أنه كان محدّثاً بارعاً. وعندما كبرتُ وناقشته حول فائدة التمسك بالتأليف والعلم في عالم يطغى فيه المال والأعمال كانت إجابته دائماً: "لا يا ولدي لا تخطئ، فإن رتبة العلم أعلى المراتب".

أما الذكرى الرابعة فهي مرتبطة بحبه الشديد لدمشق وشوقه الدائم للمدينة وأهلها وأزقتها وياسمينها. فكان إذا سمع أغنية "يا مال الشام" طرب وانفرجت أساريره ولكن غالباً ما تترقرق الدموع في عينيه بعد حين، ويبدأ بذكر أهله وإخوانه في الشام، وطفولته في القيمرية وزقاق الصواف ومدرسة البحصاء، وشبابه في مكتب عنبر، وانتقال العائلة إلى المهاجرين وروعة جبل قاسيون وجمال الغوطة وصبا بردى. وقد كان دائماً يتأمل في خريطة دمشق القديمة ومدارسها الأثرية المعلقة في مكتبه، والتي كان قد وضعها حين عمل في مديرية الآثار. وقد خص مدينته دمشق بحيز خاص من جهده، وقدم لها عشرات المؤلفات والمخطوطات المحققة التي عُنِيت بتاريخها وآثارها.

أخيراً هناك ذكرى هؤلاء الزوَّار من علماء ومستشرقين الذين توافدوا على مر السنين لزيارة منْزلنا؛ أصدقاء، جمعهم حبهم للعلم والتراث العربي، ومنهم من أخذني طفلاً على ركبتيه مثل ساطع الحصري أو ماسينيون، ومنهم من لاعبني مثل طه حسين، أو حدثني مثل الأب دوبوركوي.

وهناك العديد العديد غيرهم من أفاضل الأدباء والشعراء والعلماء الذين أكرموا والدي بزيارتهم، والذين جعلوا بيتنا بجلساتهم وأحاديثهم روضةً للشعر والأدب، ومجمعاً لمحبي التراث والتاريخ؛ المخطوط منه والمطبوع، ولا أخفي عنكم أن معايشة تلك الشخصيات اللامعة عن كثب، والاستمتاع بحواراتها وأحاديثها مدرسةٌ نادرة وخبرة كاملة أبقت آثارها في مخيلتنا، ورونقَها في نفوسنا.

أيها الحفل الكريم:

إن الموت حق، ولا يدفع الكدرَ والحزنَ مثلُ التسليم بقضاء الله وقدره، ولا يخفف وقع المصاب إلا ذكر حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم يُنتفَع به أو ولد صالح يدعو له".

وأدعو الله تعالى أن يتغمد والدي الدكتور صلاح الدين المنجد برحمته، ويكرمه باستمرار حسنات أعماله، وأن يمنَّ على الأمة بأمثاله كي يرفعوا راية العلم ويتابعوا العمل.

وشكراً.